

الفصل الثانى أسطورة الحياة

زعم مؤلفو الأسفار اليهودية أن الله ﷻ بعد أن خلق آدم ﷺ، وزوجه، وأسكنهما جنة عدن، نهاهما عن الأكل من ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة، وأغرث الحية المرأة بالأكل منها ؛ فأكلت هى، وأعطت زوجها، وقبل أن نعلق على هذه الرواية الكهنوتية نذكر هنا نص عبارة الأسفار اليهودية، من الإصحاحين الثانى والثالث من سفر التكوين، لتتضح معانى التعليق :

الشجرة المحرمة

١٥ وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَٰهَ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ لِيَقْلَحَهَا وَيَعْتَنِي بِهَا. ١٦ وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَٰهَ آدَمَ قَائِلًا: «كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، ١٧ وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لَأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلَ مِنْهَا حَتْمًا تَمُوتُ».

خلق المرأة

١٨ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَٰهُ: «لَيْسَ مُسْتَحْسَنًا أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيدًا. سَأَصْنَعُ لَهُ مُعِينًا مُشَابِهًا لَهُ». ١٩ وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَٰهُ قَدْ جَبَلَ مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَصَاءِ وَأَخْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى بِأَيِ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَتَّى اسْمًا لَهُ. ٢٠ وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءَ عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِينًا مُشَابِهًا لَهُ. ١٢ فَأَوْفَعَ الرَّبُّ الإِلَٰهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، ٢٢ وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَخْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣ فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي».

فَهِى تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِيءٍ أُخِذَتْ». ٢٤ هَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَصِيرَانِ جَسَداً وَاحِداً. ٢٥ وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَغْتَرِبْهُمَا الْحَجَلُ.

سقوط الإنسان

١ وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ: «أَحَقًّا أَمَرَكُمَا اللَّهُ أَلَّا تَأْكُلَا مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» ٢ فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا، ٣ مَا عَدَا ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِهَا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَلْمَسَاهُ لِكَيْ لَا تَمُوتَا». ٤ فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةَ: «لَنْ تَمُوتَا، ٥ بَلْ إِنْ اللَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلَانِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَانِ مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ». ٦ وَعِنْدَمَا شَاهَدَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَعَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضاً فَأَكَلَ مَعَهَا، ٧ فَانْفَتَحَتْ لِلْحَالِ أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لَأَنْفُسِهِمَا مَازَرَ مِنْ أَوْرَاقِ النَّبْتِ.

أسطورة الحيَّة

٨ ثُمَّ سَمِعَ الزَّوْجَانِ صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِ مَاشِيَاً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَا مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ الْإِلَهِ بَيْنَ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩ فَتَنَادَى الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟» ١٠ فَأَجَابَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَاخْتَبَأْتُ خَشْيَةً مِنْكَ لِأَنِّي عُرْيَانٌ». ١١ فَسَأَلَهُ: «مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟» ١٢ فَأَجَابَ آدَمُ: «إِنَّهَا الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا رَفِيقَةً لِي. هِيَ الَّتِي أَطْعَمْتَنِي مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ». ١٣ فَسَأَلَ الرَّبُّ الْإِلَهُ الْمَرْأَةَ: «مَاذَا فَعَلْتِ؟» فَأَجَابَتْ: «أَغْوَيْتَنِي الْحَيَّةُ فَأَكَلْتُ». ١٤ فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: «لَأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ، عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ، وَمِنْ التُّرَابِ تَأْكُلِينَ طَوَالَ حَيَاتِكَ، ١٥ وَأُثِيرُ عَدَاوَةَ دَائِمَةٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ نَسْلَيْكُمَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ وَأَنْتِ تَلْدَغِينَ عَقْبَهُ».

١٦ ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَةِ: «أَكْثُرْ تَكْثِيرًا أَوْجَاعَ مَخَاضِكَ فَتُنْجِبِينَ بِالْأَلَامِ أَوْلَادًا، وَإِلَى زَوْجِكَ يَكُونُ اشْتِيَاقُكَ وَهُوَ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكَ». ١٧ وَقَالَ لِآدَمَ: «لَآنَكَ أَذَعَنْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ، وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا، فَالْأَرْضُ مَلْعُونَةٌ بِسَبَبِكَ وَبِالْمَشَقَّةِ تَقْتَاتُ مِنْهَا طَوَالَ عُمْرِكَ. ١٨ شَوْكًَا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ١٩ يَبْعَرِقُ جَبِينُكَ تَكْسَبُ عَيْشُكَ حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ، فَمِنْ تُرَابٍ أُخِذْتَ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

طرد الإنسان من الجنة

٢٠ وَسَمَّى آدَمَ زَوْجَتَهُ «حَوَاءَ» لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. ٢١ وَكَسَا الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ رِدَاءَيْنِ مِنْ جِلْدٍ صَنَعَهَا هُمَا.

٢٢ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ: «هَآ الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا، يُمَيِّزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَدْ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَتَنَاوَلُ مِنَ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ وَيَأْكُلُ، فَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ». ٢٣ فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَقْلَعَ الْأَرْضَ الَّتِي أَخَذَ مِنْ تُرَابِهَا. ٢٤ وَهَكَذَا طَرَدَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ، وَأَقَامَ مَلَائِكَةَ الْكَرُوبِيمِ وَسَيْفًا نَارِيًّا مُتَقَلِّبًا شَرْقَى الْجَنَّةِ لِحِرَاسَةِ الطَّرِيقِ الْمَفْصِيَّةِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ». (١).

التعليق :

١ - غفل المؤلف العبقري عن جريمته البشعة ؛ فقد صَوَّرَ " الإله " كذَّابًا غاشًا حينما هَدَّدَ آدَمَ وزوجه بالموت حتَّى إذا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ، وصَوَّرَ الشَّيْطَانَ صَادِقًا ناصحًا حين قال لهما لن تموتا بل تنفتح أعينكما على التمييز بين الخير والشر، وبالفعل أَكَلَ آدَمُ وزوجه مِنَ الشَّجَرَةِ، ولم يموتا، بل انفتحت أعينهما على الحقيقة، فكذَّبَ الإله، وَصَدَّقَ الشَّيْطَانَ وَنَصَحَ، ونسأل ذلك المؤلف العبقري، ونترك له الإجابة عن السؤال :

مَنِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مِنْ آدَمَ وزوجه إله كذَّابٌ أو شَيْطَانٌ صَادِقٌ ؟

(١) تكوين ٢: ١٥ - ٢٥، ٣: ١ - .

٢ - ليس في النصوص الدينيّة المعروفة حيوان يتكلّم - فكيف تكلمت الحيّة ؟ وبأية لغة إنسانية ؟ ومن أكسبها تلك اللغة، وهى ليست معجزة من المعجزات التي يأتي بها الله لتأييد أنبيائه ؟ علماً بأنّ في التراث الدينى الكثير من الحيوانات خلقها الله كمعجزات صحبت رسالة نبي من أنبياء الله تعالى : مثل عصا موسى عليه السلام، وناقّة صالح عليه السلام، والطين الذي كان يشكّله سيّدنا عيسى بن مريم عليه السلام فيصبح طيراً بإذن الله تعالى... ولم يرو لهذه المعجزات حديث أو كلام.

فكيف فسّر صهاينة اليهود والمسيحيين هذه الأسطورة ؟

جاء في تفسيرها في الشريعة الخطيّة "ما يدعونه الكتاب المقدس" طبع دار المشرق بيروت، وتوزيع جمعيات الكتاب المقدس في المشرق سنة ١٩٨٨م في صفحة ٧٣ الحاشية الأولى ما نصّه : "تمثّل الحيّة هنا كائناً يقاوم الله، ويعادى الإنسان، وهو العدو والشیطان في نظر سفر الحكمة ثمّ في العهد الجديد والتقليد المسيحي (أيوب ١ / ٦)".

ولم يرد في القرآن الكريم ذكر للحيّة المزعومة، وتفسير المفسرين المسيحيين أنّ الحيّة هى العدو، أو الشيطان هو تفسير إسلامي بحث مأخوذ من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَٰهُمَا﴾^(١).

أمّا قدماء المسيحيين فكانوا يؤمنون بأنّها حيّة حقيقية تتكلّم، وكانوا يسخرون من رواية القرآن الكريم ؛ والدليل على ذلك ما جاء في ترجمة روبرت الكتوني Robert de Ketton معانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية في سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٣م، بتكليف من بطرس المكرّم Pierre le Vénérable (١٠٩٢ - ١١٥٦) رئيس الدير الكولوني Cluny، وكانت الترجمة غير أمينة، وتركت أثراً سيئاً في

(١) سورة الأعراف ٧ : ٢٠.

الدراسات الغربية، فقد علّق واحد من رهبان الدير على هذه الآية الكريمة بكلمتين اثنتين فقط، قال : " كذب وقح " ^(١).

وقد يقول قائل : جاء في القرآن الكريم أنّ النمل تكلم في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأَيَّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٢).

وجاء فيه أنّ الهدهد تكلم في قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَتْ بِمَا لَمْ حُطِّ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَلٍ يَنْبَغِي يَقِينٌ ﴾ ^(٣).
فلماذا لا تكون الحية تكلمت ؟

والأمر هنا مختلف تماما عن حديث الحية وذلك لسببين :

الأول : أنّ الحديث هنا معجزة إلهية لتأييد رسالة نبي من الأنبياء في دعوته للإيمان والتوحيد، وليس الأمر كذلك بالنسبة لحية آدم ؛ فليس هناك رسالة، ولا دعوة، ولا إعجاز.

والآخر : أنّ العلم أثبت أنّ لجميع الكائنات الحية لغة يتفاهم بها أفراد نوعه ؛ فحديث النملة مع أفراد جنسها، وتحذيرها لهم أمر محقق علميا، ولكن الإعجاز ليس في حديثها، وإنّما في فهم سيّدنا سليمان عليه السلام لغة الحيوان، وهى من نعم الله عليه فقد وهبه الله ملكا لم يهبه لغيره، وعلمه منطق الطير، وسخر له جنوده من الإنس والجن، قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٤) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ^(٥).

(١) مقال د / محمد عباس " الحقيقة كما وقعت " نقلا عن كتاب " الغارة على الإسلام " للدكتور ربيع بن محمد، والمقال منشور في موقع الدكتور محمد عباس في شبكة المعلومات الدولية " الإنترنت ".

(٢) سورة النمل ٢٧ : ١٨.

(٣) سورة النمل ٢٧ : ٢٢.

(٤) سورة النمل ٢٧ : ١٦ - ١٧.

٣ - أصبحت المرأة هي الخطيئة الأولى، واستحقَّت الألم والمعاناة، في الحمل والإرضاع، بعقاب الله لها، وفي الوقت نفسه استحقَّت الإذلال من الرجل، وتكرر الإشارة إلى ذلك في أكثر من موضع في الأسفار اليهودية، من مثل ما جاء في سفر تثنية الاشتراع: " ٢٨ وَإِذَا وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَحْطُوبَةٍ فَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا وَضَبِطًا مَعًا، ٢٩ يَذْفَعُ الرَّجُلُ الَّذِي ضَاجَعَ الْفَتَاةَ خَمْسِينَ قِطْعَةً مِنَ الْفِضَّةِ وَيَتَزَوَّجُهَا، لِأَنَّهُ قَدْ اعْتَدَى عَلَيْهَا. وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُطْلَقَهَا مَدَى حَيَاتِهِ. " (١).

ومن المؤسف أنني كنت قد بدأت قراءة " الشريعة الخطيئة " من النشرة الكاثوليكية لجمعيات الكتاب المقدس في بيروت، وقد اخترتها للشروح التي في حواشيها، وكتبت تعليقاتي بناء على نصوصها، ولكنني عند كتابة هذا البحث كنت أنقل النص من طبعة الروم الأرثوذكس "كتاب الحياة" الذي وجدته على "الإنترنت"، وفوجئت بأن تعليقاتي لا تتفق مع النص المنقول، فقد علقت على المقولة السابقة بعبارة:

"الواضح من النص أن المهر والزواج والإمساك لمجرد الإذلال، ولتظل المرأة منكسة الرأس بفعلتها طوال حياتها، وليس الزواج هنا تصحيحا للخطأ، أو رعاية للحرمة، أو تكفيرا عن الذنب".

ولمَّا لم أجد التعليق متفقاً مع النص المنقول رجعت إلى طبعة بيروت، فوجدت العبارات كالآتي (٢): " وَإِذَا صَادَفَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ لَمْ تُحْطَبَ، فَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا، فَوُجِدَا مَعًا، فَلْيُعْطِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُضَاجِعُ هَا لِأَبِي الْفَتَاةِ خَمْسِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَتَكُونُ لَهُ امْرَأَةً، لِأَنَّهُ أَذْهَاهَا، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُطْلَقَهَا كُلَّ أَيَّامِهِ. "

فانظر الفروق الجوهرية بين الترجمتين، وكيف حذفت الترجمة الأرثوذكسية كلمة "أذهأ" وأعادت صياغة العبارة "لأنه اعتدى عليها" وكأن الإذلال والاعتداء بمعنى واحد، وقد واجهتني هذه المشكلة في كل النصوص التي استشهدت بها.

(١) تثنية الاشتراع ٢٢: ٢٨ - ٢٩.

(٢) النص بالبيانات السابقة في ص ٣٩٢ من طبعة بيروت.

وعلى قدر إذلال المرأة وإيذاؤها يكون الرجل اليهودى والمسيحى قريبا من الله، وأصبح الرجل اليهودى والمسيحى يتترس بها ويدرع، ويقف من خلفها، ويحمى نفسه بتقديمها للمخاطر، ويسخر منها بعُريها وكشف جسدها باسم "المودة" La Mode، والسير من ورائها؛ ليتفرج عليها، وعلى أردافها، وهو الإذلال بعينه، يفعل ذلك باسم الرقى والتقدم أو "الإيتيكتيك L'Étiquette"؛ فاللأهوت المسيحى فى مراحل الأولى ينص على "أن مصدر العار هو المرأة، ومصدر العناء فى الجهاد هو المرأة، ومصدر الوجود الدنيوى هو المرأة، وإذا فَيَاكِ والمرأة" (١).

وإذا كانت المرأة - فى ثقافة صهيانية اليهود والمسيحيين - قد استحققت الإذلال لأنها أغوت آدم ﷺ، وتسببت فى إخراجه من الجنة فإن للمرأة فى الثقافة الإسلامية شأنًا آخر، مناقضًا تمامًا لهذه الصورة الكريهة من المعاملة غير الإنسانية.

فى الإسلام الذى يتحمل المسئولية هو آدم ﷺ قال تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلَمْ أَذْكُرْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكًا لَّا يَبْلَى ۚ فَأَكْثَرًا مِنْهَا قَبَذَتْ هُمَا سَوْءَ تَهْمَا وَطَفِقَا مَخَصَصَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝﴾ (٢).

والمرأة فى الإسلام مصانة محصنة فى حماية الرجل، وهو مسئول عنها، وعن حمايتها، ويقدم نفسه دفاعا عنها، وحفظا لها؛ فهى شرفه وعرضه، ومن مات دون عرضه فهو شهيد.

٤ - فى النص إشارة صريحة إلى تعدد الآلهة "كواحد منا" غير أنهم خالدون، ولو تركوا الإنسان يأكل من شجرة "الحياة" لأصبح خالدا مثلهم، وكان هذا هو السبب الرئيس فى طرد آدم وزوجه من الجنة، وخوفا من أن يتمكن آدم من خداعهم والوصول إلى الشجرة المحرمة فى غفلة منهم فقد أقاموا حراسة مشددة عليها، حراسة مزدوجة من: ملائكة الكروبيم - وتكتب أحيانا بالنون بدلا من الميم - وشعلة سيف متقلب تقطع الطريق على من يحاول الوصول إلى شجرة الحياة.

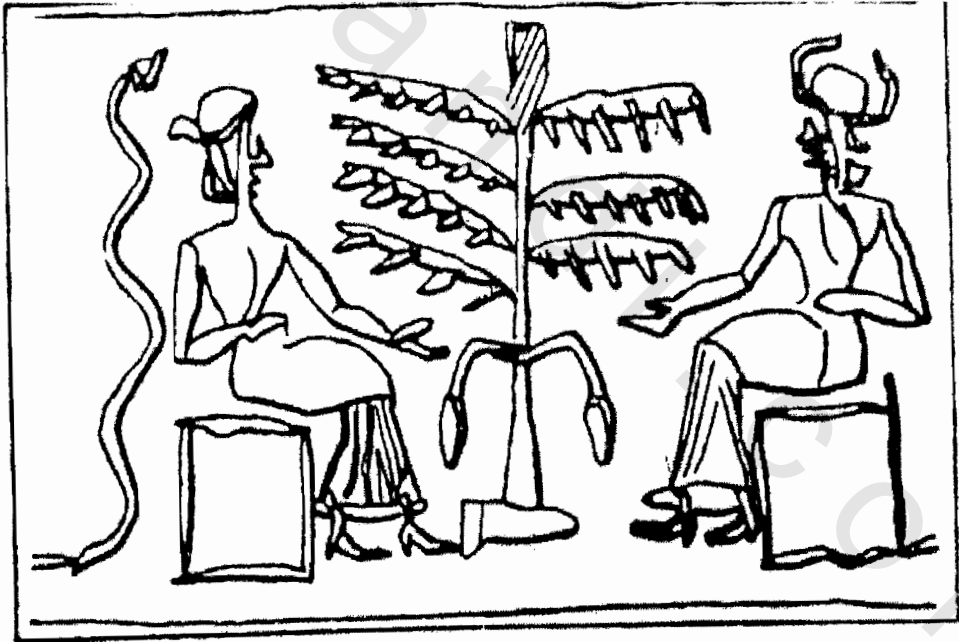
(١) قصة الحضارة ٣ / ١٧٨.

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٢٠ - ١٢١.

٥ - كما يشير النص إلى الصفات البشرية التي تتصف بها الآلهة ؛ فالإله هنا يجهل ما يدور من حوله، فيسأل عما لا يعرف، وسوف نرى أنَّ هذا التشخيص الوثني أثر من آثار الأساطير القديمة في الشرق والغرب على السواء، ويتكرر هذا التجسيم في كل أسفار اليهود.

٦ - ليس للحية أيُّ سند ديني ؛ فقد أخذ أحبار اليهود فكرة الحية من الأساطير السومرية القديمة، بعد الكشف عن نقش تظهر فيه بوضوح هذه الأسطورة ؛ فقد أظهرت المكتشفات الحديثة أنَّ قصَّة آدم وحواء، بما فيها قصَّة جنة عدن قصَّة قديمة ترجع جذورها إلى عهود ما قبل الأسفار اليهودية، في نقش سومري وُضِعَ قبل التوراة بألفى عام، فقد نقل الدكتور أحمد سوسة الصورة الآتية عن كتاب :

Ward W. H. ; The Seal Cylinders of Western Asia ; ١٩١٠.



الصورة رقم (٧٦)

قصَّة آدم وحواء وإغراء الحية لهما على نقش سومري

ويبدو في الصورة رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين، وامرأة حاسرة الرأس، جالسين الواحد أمام الآخر، وقد نبتت شجرة بينهما تشبه النخيل تدلّ منها عذقان، الرجل ماذّ يده اليمنى نحو العذق الذي أمامه ؛ ليقطف من ثمره، والمرأة ماذّة يدها اليسرى نحو العذق الذي أمامها ؛ لتقطف من ثمره أيضا، وتشاهد الحيّة وهي منتصبة على ذنبها خلف المرأة ؛ تغريها بالأكل من الثمر المحرّم عليها أكله.

ويرى ول ديورانت في هذه الحيّة رمزا لإجلال الإنسان البدائي الوظيفة الجنسية من آلهتهم ؛ " لأنهم يرتبطون ارتباطا وجدانيا بالخصوبة في المرأة وفي الأرض، ولذلك عبدوا بعض الحيوان كالعجل والثعبان لأنّ لهما - فيما يظهر - القوة الإلهية في الإنسال، أو قل : إنّهما يرمزان لتلك القوة، فلا شك أنّ الثعبان في قصّة عدن رمز جنسى، يمثّل العلاقة الجنسية باعتبارها أساس الشرّ كلّ، ويوحى بأنّ اليقظة الجنسية هي بُدأة الخير والشر، وربّما يشير كذلك إلى علاقة أصبحت مضرب الأمثال بين سذاجة العقل ونعيم الفردوس ^(١).

وهذا التفسير الرمزي لأسطورة الحيّة يؤكّد ارتباطها بالأسطورة السومرية، وأنّه لا علاقة لها بقصّة الخلق كما رواها اليهود، والدليل على ذلك أنّ اليهود أنفسهم قدّسوا الحيّة ؛ وادّعوا أنّ تلك القدسيّة بسبب أنّ إلههم يهوه كلّف نبي الله موسى ^{عليه السلام} بصنعها، ونصّبها لهم :

الحيّة النحاسية

٤ وَأَزْخَلُوا مِنْ جَبَلٍ هُورٍ عَنْ طَرِيقِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ لِيَدُورُوا حَوْلَ أَرْضِ أَدُومَ فَأَعْيَتْ نَفْسُ الشَّعْبِ فِي الطَّرِيقِ، ٥ وَتَذَمَّرُوا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى مُوسَى قَائِلِينَ: «لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ لِنَمُوتَ فِي الصَّحْرَاءِ، حَيْثُ لَا خُبْزَ وَلَا مَاءَ؟ وَقَدْ عَافَتْ أَنْفُسُنَا الطَّعَامَ النَّافِةَ». ٦ فَأَطْلَقَ الرَّبُّ عَلَى الشَّعْبِ الْحَيَّاتِ السَّامَةَ، فَلَدَغَتْ الشَّعْبَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ قَوْمٌ كَثِيرُونَ. ٧ فَجَاءَ الشَّعْبُ إِلَى مُوسَى قَائِلِينَ: «لَقَدْ أَخْطَأْنَا إِذْ تَذَمَّرْنَا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَيْكَ، فَابْتَهِلْ إِلَى الرَّبِّ لِيُخَلِّصَنَا مِنَ الْحَيَّاتِ». فَصَلَّى مُوسَى مِنْ أَجْلِ

(١) قصة الحضارة ١ / ١٠٦.

الشَّعْبِ، ٨ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْنَعْ لَكَ حَيَّةَ سَامَّةً وَازْفَعْهَا عَلَى عَمُودٍ، لِكَيْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا كُلُّ مَنْ تَلَدَّعُهُ حَيَّةٌ، فَيَحْيَا» ٩ فَصَنَعَ مُوسَى حَيَّةً مِنْ نُحَاسٍ وَأَقَامَهَا عَلَى عَمُودٍ، فَكَانَ كُلُّ مَنْ لَدَعَتْهُ حَيَّةٌ، يَلْتَفِتُ إِلَى حَيَّةِ النُّحَاسِ وَيَحْيَا. ^(١).

وصورة الأفعى التى وجدت فى أقدم آثار اليهود تدلُّ على أنَّهم عبدوها، وذلك لأنَّها رمز الذكورة المخصبة من جهة، ولأنَّها من جهة أخرى تمثِّل الحكمة والدهاء والخلود - فضلا عن القدرة لأنَّها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان ^(٢).

وكتب الأستاذ حسنى يوسف الأطير فضلا ممتعا عن العقوبات الخاصَّة بالحَيَّة تعليقًا على ما جاء فى الأسفار اليهودية، هذا ملخَّصه ^(٣):

✽ أنزل الله بالحيَّة أربع عقوبات :

العقوبة الأولى : اللعنة وهى الطرد من رحمة الله ؛ فتصبح منبوذة عن سائر خلائق الأرض من حيوان وإنسان.

العقوبة الثانية : السعى على بطنها، وهذا يعنى أنَّها لم تكن تسعى على بطنها قبل إنزال العقوبة بها، بل كانت على نقبض ذلك لها أرجل أو قوائم تمشى بها.

ويبدو أنَّ النص السامرى للشريعة الخطيَّة أوفق للمعنى ومدلول السيَّاق من النسخ المتداولة، وفيها - يوجَّه الحديث إلى الثعبان الذكر - " بطنك تسعى، وترابًا تأكل أيام حياتك " فيكون إخبارًا عن كون الحال فى سعيه ببطنه على ما هو عليه، ولن يحصل مع بذل الجهد إلَّا على الخسارة والانكسار، وردَّ جوعه بالتافه الدنىء مما يكرهه، وتعافه نفسه.

يجمع اليهود والمسيحيون على القول بنزول العقاب بالحيَّة باعتبارها رمزًا للشيطان الذى هو الفاعل الحقيقى، والمحرض على الجريمة ✽ فإذا كان إبليس - أو الشيطان - كائنًا حقيقيًا ذا وجود واقعى.

(١) العدد ٢١ : ٤ - ٩.

(٢) قصة الحضارة ٢ / ٣٣٩.

(٣) المواجهة بين القرآن والإسرائيليات ٢٥٢ - ٢٦٨.

❖ وإذا كانت الحيّة - أو الثعبان - حيواناً حقيقياً ذا وجود واقعي .

فالناتج إذن أننا أمام كائنين حقيقيين منفصلين كل منهما عن الآخر انفصالاً حقيقياً :

فكيف يكون إنزال العقاب بأحدهما عقاباً للآخر المبين له ؟ وإذا كانت الحيّة رمزاً - فهل إنزال العقاب بالرمز عقاب لما يرمز له أيضاً ؟

وهل للحيّة عقل تفكر به، وتنخدع لقول عدوها ؟ ونحن نعلم أن جميع الكائنات خلقت بالأمر " كُنْ " إلا الإنسان الذي سواه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، وحمله الأمانة، كما قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾^(١)، أو كما زعمواهم في أسفارهم : " ٢٦ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ : «لِنَصْنَعِ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا، كَمِثَالِنَا، فَيَسْلُطَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ، وَعَلَى الْأَرْضِ، وَعَلَى كُلِّ زَاحِفٍ يَزْحَفُ عَلَيْهَا» . ٢٧ فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ . عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ . ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ " ^(٢).

كان تحذير الله آدم وزوجه من وسوسة الشيطان باعتباره عدواً لهما - فهل حذر الله جميع الحيوانات أيضاً من الشيطان، فيحقّ عليها العقاب إذا عصت الأمر، وهل كان هناك عداً بين الحيّة والشيطان ؟

وما سبب ذلك العداً بينهما ؟

كيف تكون الحيّة أو الثعبان رمزاً للشيطان، أو لسلطان الشر وقد كانت هي معجزة سيّدنا موسى ﷺ يوم أقبل إلى فرعون، ويوم واجه السحرة، ويوم أقام تماثيلها النحاسي للاستشفاء بالنظر إليها بزعمهم، أترأه كان يلقي عصاه لتصير رمزاً لسلطان الشر الأكبر، لينتصر به على فرعون ؟ وهل يدعو الذي يستعين برمز الشيطان إلى خير ؟.

(١) سورة السجدة ٩ : ٩ .

(٢) تكوين ١ : ٢٦ - ٢٧ .

بل إِنَّ المسيح ﷺ نفسه نصح حواريه قائلاً لهم : "١٦ هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ مِثْلَ
الْخِرَافِ بَيْنَ الذَّنَابِ، فَكُونُوا مُتَنَبِّهِينَ كَالْحَيَّاتِ وَمُسَالِمِينَ كَالْحَتَامِ." (١) فهل كان
يدعوهم إلى أن يكونوا أشرارا خبيثاء كرمز الشيطان ؟

وملخص الكلام أن الحية ضحية، لا ذنب لها : فلم يحذرها الله من كيد الشيطان،
ولم يأتها عقلاً وتمييزاً، ولا تغيير في خلقها، ولا عقوبة عليها أصلاً كما يزعمون، وإنما
هو استمداد أسطوري بحت، لا أصل له من خبر صحيح، أو بيّنة محققة.

العقوبة الثالثة : الاغتذاء بالتراب، وهو قول مضحك حقاً ؛ فغذاء الحيات
معروف : صغار الحيوانات، والطيور، والأسماك... وما علمنا التراب غذاءً لها، أو
لغيرها، ولعل كاتب هذا السفر أراد أحد أمرين :

الأمر الأول : أن يكون الكاتب رأى بعض الحيات تعتصر الطين لتستخرج منه
الحشرات، أو الديدان، أو آثار اللحوم لتغذى به، فظنّها تأكله، وإنما هي تأكل ما
علق به، ولا يكون في ذلك عقوبة بالنسبة لها لأنّ العقوبة أن يرغم المعاقب على ما
يكره، والحية ليست مكروهة على اعتصار التراب، بل تجد لذة ومتعة في ذلك ؛ لأنّها
تتغذى به.

والأمر الآخر: أن يكون المعنى مجازياً على اعتبار أنّ العقاب حلّ بالشيطان بعد
أن عاد إلى طبيعته، ونزع عنه جلد الحية، فوجب أن يعاقب أقسى عقوبة، وأشدّها،
وأذلّها حتّى يصبح أنفه ملتصقاً بالرغام.

فإذا كان المراد المعنى الأول أو الثانى ففي الحالتين لا تغيير في خلق الحية أو
طبيعتها، ولا تعديل أيضاً فيما جُبلت عليه من جنس الطعام.

العقوبة الثالثة : إلقاء العداوة بينها وبين بنى البشر، وزعم مفسرو النص من
اليهود والمسيحيين أنّه يمثل الصراع اليومي بين أىّ إنسان وحية، حيث لا يتردد في
شدخ رأسها بأى حجر، أو أداة تدركها يدها، ويبتئوا أخطار الحيات في البلاد التى

تكثر فيها، وتأثب الإنسان لسحقها بمجرد استشعاره لها، بينما هي ترصد للدغة في " عقبه " أى : مؤخر قدمه على قوهم، وهذا تفسير سطحى ساذج ينم عن حمق وجهل، وخلط بين الرمز والرموز إليه، ويتعين أن نفس النص، وننظر إليه على مستوى آخر، وهنا تفسيران : إسلامى، ومسيحى.

التفسير الإسلامى: أن يقصد بالرأس الفكر والتدبير؛ فالإنسان مستعيناً بالوصايا الإلهية سيحبط كيد الشيطان ويفسد خططه وتدبيره، وهذا وعد

من الله ﷻ منذ بدء الخليقة، قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١).

وأما مقولة " وأنت تسحقين عقبه " فهو بيان لمهمة الشيطان في تعقب الإنسان، والترصد له بالتجربة والامتحان، وهذا أيضا وعد من الله ﷻ منذ بدء الخليقة، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٢).

ومعنى العقب هنا : النسل والذرية ؛ وبذلك يصبح المعنى أن الشيطان بعد أن أذى مهمته بالنسبة للأبوين، أصبح عليه أن يستكملها بعد ذلك في نسلهما.

التفسير المسيحى : زعموا أن المرأة هنا هى العذراء مريم الناصرية أم المسيح، وزعموا أيضا أن نسل المرأة هو المسيح ﷺ نفسه ؛ فكأنها نبوءة بمجىء المسيح ابن الله الذى يقهر إبليس، ويسقط تدبيره، ويكفر عن خطيئة آدم وزوجه، وفي هذا المقام يثار سؤالان :

لماذا جاء المسيح فى صورة بشرية ؟

وهل الخلاص لا يتحقق إلا بالمسيح وحده، دون غيره ؟

(١) سورة البقرة ٢ : ٣٨.

(٢) سورة الأعراف ٧ : ١٤ - ١٨.

✽ الإجابة عن السؤال الأول : جاء المسيح بن مريم متخفياً في صورة بشرية - مع أنه إله، وابن إله، وأمه إلهة أيضاً - مكرراً بالشیطان - بزعمهم - واستغفلاً له، حتى لا يعرفه، ويكتشف غايته في رفع خطيئة آدم ؛ فيحبط الشيطان خطته، ويفشل تدبيره، وتبقى البشرية تتحمل أوزار خطيئة أبيها آدم^(١).

أرأيت إلى هذه الحفلة التنكرية الكونية، وكأن الله ﷻ يعمل للشیطان ومكره ألف حساب، ويخاف الله ﷻ من أن يفسد الشيطان تدبيره وهو الخالق، وكأن للشیطان القدرة على تعليق مشيئة الله، وردّ سلطانه، وكشف إرادته، وكأن الشيطان يعلم ما في نفس الله - تماماً كعلم الله ما في نفس الشيطان ؛ فلا بد أن يلعب معه لعبة الاستخفاء هذه - أو لعبة الاستغماية كما كنّا نسميها ونحن أطفال - ومع كل هذه الاحتياطات فقد كشف الشيطان ستره وعرف سرّه، وأخضعه للامتحان والاختبار في البرية كما سنبينه في حديثنا عن رسول الله، وعبداه المسيح عيسى ابن مريم ﷺ.

✽ الإجابة عن السؤال الثاني : إننا يتحقق الخلاص به وحده، دون غيره من جميع الكائنات ؛ لأنه إله، والإله وحده هو الذي يستطيع رفع خطيئة آدم التي لا نهاية لها، والتكفير عنها بقدرته التي لا نهاية لها، بينما لا يستطيع ذلك الإنسان ؛ لأنه مخلوق متناه محدود.

وإنما صارت الخطيئة لا نهاية لها ؛ لأنها وقعت في حق الله الذي هو وجود مطلق، غير متناه، فلا يكفر عنها أمامه إلا إله مثله، معادل له من عين جوهره وطبيعته، ووجوده مثل وجوده من حيث هو مطلق لا متناه، وبموت المسيح معلقاً على الصليب يكون قد قدّم الفداء عن آدم وذريته إلى الإله الأب الذي وقعت في حقه الخطيئة، فتمت الكفارة، وخلص بذلك من آمن بهذا الاعتقاد^(٢).

ولنا عودة مرة أخرى للحديث عن أسطورة الفداء هذه، وبيان ما فيها من مخالفة للعقل والمنطق، وما فيها من هدم لجميع الأديان والعقائد والشرائع، وما

(١) المواجهة ٢٦٢.

(٢) المواجهة ٢٦٢.

تمثّله من افتراء على الله وعلى رسله، حتّى أنّ كثيرا من المسيحيين بدءوا ينجحون من هذه المقولة، ويتنصّلون منها، وذلك فى الفصل السادس، ونحن نتحدّث عن المسيح عليه السلام.

وفى الحقيقة تحتلّ الحيّة مكانة خاصّة فى الديانات والعقائد القديمة، لدى جميع الشعوب فى الشرق والغرب، على السّواء، ومن أمثلة ذلك :

✽ كان الملك فى مصر القديمة يرسم على رأسه الصقر رمز حورس وشعار القبيلة، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة وواهة القوى السحرية للتاج^(١).

✽ فى ملحمة جلجميش : ندمت الآلهة على ما سببه الطوفان من دمار، وأبقت على جلجميش وزوجه، وخلّدتها ؛ لأنّهما أنجيا النوع الإنسانى من الفناء، وقدّمت إليه نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها، وأثناء عودته وقف فى طريقه ليستحم، وبينما هو يفعل هذا إذ تخرج إليه أفعى، وتسرق النبتة، وكان كثير من الأقدمين يعبدون الأفعى، ويتخذونها رمزا للخلود وذلك لقدرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبديل جلدها^(٢).

ونجد فى أساطير العالم نماذج كثيرة تتخذ من " الحيّة، أو الثعبان، أو التنين " رمزا يجسّم قيما إنسانية، ويعبّر عن تطلّعات البشر إلى أن يحقّقوا السعادة لأنفسهم ؛ فيجدون الأمن بعد خوف، والراحة بعد تعب والاستقرار بديلا من الفوضى، والهداية عوضا عن الضلال ؛ لذلك نجد أنّ رمز الثعبان قد نجده فى مجال الخوف، والهلاك، والحبس، وجميع صنوف الظلام والشر، وفى الوقت نفسه نجده فى مجال الحياة، والبقاء،

والخلود، وجميع صنوف النور والخير.

ففى الأساطير المصرية القديمة نجد الثعبان رمزا لنحو ثلاثة عشر إله أو إلهة، تتعارض فيها الدلالات وتنوّع، وكلّها تعبّر عن الروح الإنسانية الوثابة، الساعية إلى الرقى، والكمال، وأكتفى هنا ببعض من تلك النماذج :

(١) قصة الحضارة ٢ / ١٦١.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٤٣.

✽ أبوفيس " أو أبو بيس " : ثعبان ضخيم، طوله نحو اثنين وخمسين مترًا تتخلَّل جسمه كثيرٌ من الثنايا والتعرُّجات، يعمل ليلاً ونهارًا لتدمير "رع" إله الشمس، فهو يمثِّل مبدأ الظلمات الَّذى يهدِّد دائماً وأبداً النور والضياء، وكان لا بدَّ لابن الإلهة باستت من الإطاحة برأس الثعبان كلَّ مساء لتمرَّ مركب رع متتصرة ظافرة، ويتكرَّر كلَّ ليلة هذا الصراع بين

الخير والشر ؛ والأسطورة تجسم " الخواء البدائي حتَّى إذا دُمِّرَ فَإِنَّه لا يتوقَّف أبداً عن تهديد تناغم العالم، وتناسقه. أى أن: كلَّ نصر يتم إحرازه عل هذا الخواء والفوضى هو أمر مؤقَّت فقط " (١).

✽ وكانت " أفعى الجبل " المنتمية إلى الإله "ست" ترمز إلى المقاطعات ١٢، ١٣ ، ١٤ من مقاطعات مصر العليا (٢).

✽ فى الأساطير المصرية "أوربورس Ourobouros" الثعبان الَّذى يلتهم ذيله، فيكوِّن دائرة، يترأى بداخلها طفل يمسُّ أصبعه " الإبهام " ؛ وهو رمز للإلهين "رع، ونفرتوم"، أى : كائن ما فى بدء تكوينه، هو رمز وعلامة للحياة إِنَّه يجمع كلاً من مبدأى : الخصب المتعلِّق بأوزيريس، ومبدأ الموت ثمَّ التجدُّد الَّذى يعمل "ست" على انعاشه، وتأججه، وربَّما قد يبدو هذا الأوربورس مدمراً ومهلكاً، ولكنه على آية حال منقَّى، ومطهَّر للمادة، فمن خلال هذا الثعبان المعبرِّ عن الأبدية والخلود يتصالح الأخوان (أوزيريس وست) من أجل أن يحقِّقا مسيرة الحياة وسياقتها اللانهائى (٣).

✽ الثعبان فى الأساطير المصرية، يقول روبر - جاك تيبو : فوق الربوة الأزليَّة كانت تستقر أربعة ضفادع (المبدأ الذكورى) وأربع حيَّات (المبدأ الأنثوى) أصل جميع الآلهة، ومنبتها - أو كلَّ أنماط الحياة، والثعبان يعتبر رمزا جهنمياً، ينتمى إلى

(١) موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية ١٣، ومعجم أعلام الأساطير والخرافات ٩.

(٢) موسوعة الأساطير ٣٦.

(٣) موسوعة الأساطير ٥٤.

العالم السفلى، والديوى، وهو ذو نفع وفائدة، وهو أيضًا ضار وشؤم، يأتي بالخير، ويسبب الهلاك، يحمى الآلهة والبشر، ويهاجمهم.

لقد تولّد الثعبان من داخل بيضة أضفت عليها الشمس بدفئتها فهو يبدو وكأنّه انبثق من الأرض مثلما انبعث العالم في يوم ما من الخواء وقد لجأ "ست" إلى بعث أحد الثعابين لمهاجمة أخيه "أوزيريس" في محاولة

للقضاء عليه، وفيما بعد، شُبّهت الحركة المتماوجة الّتى تبدو في تلاطم الأمواج بتلوّى ثعبان هائل ضخّم، ومع ذلك فإنّ ثعبانا آخر هو الّذى حمل مركب أوزيريس الجنائزى على ظهره، وبفضله وصل مركبه في نهاية الأمر إلى بر الأمان المقدّر الوصول إليه.

في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً على الإله "رع" أن يقطع زاحفًا نفقًا على شكل ثعبان طوله نحو ٧٣٠ متر، ومثله كمثل المتوقّ خلال رحلته الليلية يمرّ الثعبان بالكثير من التحولات والانسلاخات طوال حياته ولذلك اعتبر رمزًا لدورات تحولات الروح البشريّة^(١).

❁ ومن أكثر الرموز المصرية "الحية الحامية أوريوس، وتعنى "إيارات Iaret" أى الّتى تستشيط غضبًا، إنّها الثعبان الكوبرا الأنثى، وترمز إلى مصر السفلى، وتمثّل غالبًا منتصبه، منتفخة الأوداج، على وشك الانقضاض والهجوم، وألسنة اللهب تتطاير من حلقها، وتعتبر الكوبرا رمزًا للهمة واليقظ، فهى تراقب فريستها ساعات طويلة، بلا حراك إلى أن تقتنصها، وهى "ابنة رع وعينه" تشير إلى القوّة والتوقّد والحيويّة المقتلة ولذلك كان ملوك مصر يضعونها دائمًا فوق جباههم بجوار السر رمز مصر العليا.

وفي الكتابة الهيروغليفية تدمج كلمة كوبرا في تكوين كلمة "إلهة" ويدل ذلك على الجمع بين هذين الجوهرين؛ وغالبًا ما نرى الرّبّات الإناث - أمثال : إيزيس،

(١) موسوعة الأساطير ١٠٣.

وحتحور، وسخمت - يتحلّين في صورة الكوبرا، ويتخفّين في هيئتها، ومن هذا المنطلق تعبّر الحيّة الحامية عن العنف الدفاعي الكامن في المبدأ الأنثوي، وعن مقدّره على الفتك أو الحماية، وفي مصر القديمة قد تراءى الإلهات والملكات وبعض الشخصيات الأنثويّة في هيئة ربّات محاربات ومقاتلات وراعات^(١).

❖ كيماتف : ثعبان مجنّح، وهو روح العالم، ويمثّل العلاقة بين "جب" - إله الأرض، و"نوت" - ربّة السماء - فهو يعبّر عن ثنائيّة الأرض والسماء الّتي تشكّل بنية الفكر المصري القديم وأساسه، وهو الّذي يتّمّ دورات الزمن، لم يكن يمثّل إلّا في داخل المقابر، فمن خلاله تتجلّى الطاقة الجبّارة الّتي تساعد الميّت على مواصلة تجاربه في العالم الآخر المعروف باسم "الدوات"؛ فالمتوفّى يتشبّث بكلّ قواه بجناحي كيماتف، ويستعين بقوّته الفائقة ليرتفع نحو السماء، فيزور عالم السماء المنير^(٢).

❖ من خلال "لعبة الثعبان" يحاول "محن" - الثعبان المكلف بابتلاع الشمس الغاربة، كل يوم - الخروج من الدائرة المقفلة، لغرض "التولّد من جديد" مثلما تفعل الشمس كل يوم، وتعتبر هذه الدورة بمثابة إحدى التصورات الموهلة في القدم عن جولان الروح في مسار "الدوات" وعبره بل هي تعد أيضا صورة مسبّقة للأوروبورس وجميع المتاهات الرمزية الأخرى^(٣).

❖ ولما كانت "أفعى الجبل" ترمز إلى بعض مقاطعات مصر العليا، فكذا كانت الربّة الثعبان "أوتو" رمزا لمصر السفلى الّتي كانت تتكوّن من ست عشرة مقاطعة أولاً، ثمّ قسّمت عشرين مقاطعة على هيئة لولبيّة تشبه ثعباناً ملتفّاً على نفسه^(٤)، كما كانت بعض الثعابين الضخمة تقوم على حراسة الأبواب، والممرات، والدهاليز^(٥).

(١) موسوعة الأساطير ١٣٣.

(٢) المصدر السابق ٢٧٤.

(٣) موسوعة الأساطير ٢٨٨.

(٤) المصدر السابق ٢٩٩.

(٥) نفسه ٣٤٤.

وكما كان الثعبان أحد الآلهة المصرية فلا تكاد نجد ديانة قديمة في الشرق أو في الغرب خلت من عبادة الثعبان، ومن أمثلة تلك الآلهة^(١):

أبالالا : ثعبان كبير في الأساطير البوذية - أنانتا الأفعى الكونية في الأساطير الهندوسية - أخيدنا في الأساطير اليونانية - أذى دهاك في الأساطير الفارسية - إيديوهويدو ثعبان قوس قزح في أساطير داهومي - ومن الآلهة الثعبان في أساطير العالم^(٢):

✽ إيريال Eyryale : إحدى الجورجونات الثلاث في الميثولوجيا اليونانية كانت صفائهن من الأفاعى، وعيونهن تحوّل الناظر إليهن إلى حجر.

✽ باسلسك : أفعى مخيفة سامّة في الأساطير الأوروبية.

✽ بان كو : الإنسان الأوّل في الأساطير الصينية، ولد من بيضة كونية على حافة العالم، وانقسمت البيضة عند ولادته إلى قسمين، وأصبح القسم الأعلى منها السماء، والقسم الأسفل الأرض، وخرج بان كو وله رأس تنين وجسم أفعى، ونما بسرعة، وعاش طويلاً، وعندما مات صارت أنفاسه الرياح والسحب، ودمه الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعره الأشجار، ولحمه الأرض، ورأسه الجبال، وعينه اليسرى الشمس، وعينه اليمنى القمر، أمّا الحشرات التي كانت تزحف على جسمه فأصبحت البشر.

✽ بوليانكا Polianka : التنين في أساطير الحثيين.

✽ جيجانتس Gigantes : وحوش لها أجسام الأفاعى ورءوس البشر، ولدوا من دماء أورانوس عندما ضربه ابنه كرونوس بالمنجل.

✽ دامبالاه Damballah : الإله الأفعى في أساطير هايتى، يشكّل مع زوجه أيدا قوس قزح رمز الاتحاد الجنسي.

(١) انظر : معجم أعلام الأساطير والخرافات : ٧، ٥٢، ٢٠، ٢٤، ٧٩.

(٢) انظر معجم أعلام الأساطير والخرافات : ٨١، ٩٥، ٩٨، ١١٦، ١٥٦، ١٦٧.

ومن الآلهة الشعبان في أساطير العالم^(١):

✻ جورنونجان Gornungan : الأفعى الكونية التى تلف العالم، وتهدد الآلهة.

✻ كيمبون Kimbon : الإله الشعبان الغامض الملامح في أمريكا.

✻ مانازا Manasa : ربّة الشعبان في الأساطير الهندية، تصوّر أحياناً على هيئة امرأة لها أربع أذرع، وتجلس على زنبق الماء، وتكسوها الشعبان.

✻ ندنغو Nedengo : الكائن الأعلى في جزر فيجي، وهو يتقدّم على جميع الأرواح، ويتصوّره الناس بصورة أفعى كبيرة، ويسكن في كهف في جبل، وهو الخالق، وتحدث الزلازل من حركته.

✻ يورلنغور Yurulunggur : الشعبان الأكبر في أساطير الأستراليين الشماليين، لوّث امرأة ماء بحيرته بطمنا ؛ فاغتاظ، وحدث طوفاناً أغرق الأرضين جميعاً، ثم ابتلع المرأة، وشقيقتها، وأولادهما.

✻ وفي عبادة ميثرا Mithra الشهيرة إله الشمس، وقاهر الظلام، وإله العقود والاتفاقات والعدالة والحرب في الأساطير الفارسية، وهو محارب جبّار، قتل الثور المقدّس، وخلق من دمه جميع الكائنات الحيّة من نبات وحيوان، والأسطورة تصوّره في صورة أسد وجسد محاط بحيّة ترمز إلى مجرى الشمس والزمان.

وعبادة ميثرا هذه كانت شائعة بين جنود الدولة الرومانية في العصور الوسطى باعتبارها واحدة من ديانات الأسرار الجديدة التى تصور الصراع بين إله الخير وبين قوة شريرة^(٢).

✻ اليم Yam : إله المياه الجارية " البحار والأنهار "، والمجموعة لدى الكنعانيين، ويرمز له بلوياتان = الحية الملتوية ذات الرؤوس السبعة والتنين وهو نظير تيامات " تهامة " البابلية، وبوسيدون الإغريقى ومن ألقاب هذا الإله " شفت نهر " = قاضى النهر^(٣).

(١) انظر معجم أعلام الأساطير والخرافات : ٢٣٥، ٢٨٠، ٣٠٣، ٣٢٨، ٣٧٢، ٣١٩.

(٢) تاريخ الفكر الحر ٣٥، وتاريخ سورية ١ / ٣٦٨.

(٣) راجع : العرب واليهود ١٢٩، ومعجم الحضارات السامية ٩٢٠.

وإذا تأملنا ما جاء في القرآن الكريم من حديث عن الحية نجده لا يخرج عن تأييد النبوة، في الدعوة لعبادة الله وحده، وبيان قدرة الله، فهو صانع المعجزات، ولما كان القرآن الكريم مهيمنا على الكتب السماوية الأخرى فإن ما جاء فيها من اتخاذ الحية رمزاً للقدرة الإلهية، وعمل الخير فإنه يكون صحيحاً، ومن أمثلة ذلك :

❁ الحية النحاسية التي نصبها سيدنا موسى ﷺ لقومه للاستشفاء بها مما أصابهم بقدرة الله تعالى.

❁ نصيحة سيدنا عيسى ﷺ حواريه بالتشبه بالحية في اليقظة والتنبه، وهو قريب من معنى الوصف المأثور : " المؤمن كيّس فطن " .

وأما الحية في أساطير الشعوب فهي رمز للكثير من المتناقضات، والقوى المتصارعة، ومن أمثلة ذلك :

❁ علامة للحياة إنه يجمع كلاً من مبدأئى : الخصب المتعلق بأوزيريس، ومبدأ الموت ثم التجدد الذى يعمل " ست " على انعاشه، وتأججه.

❁ يعتبر رمزاً جهنمياً، ينتمى إلى العالم السفلى، والدينوى، وهو ذو نفع وفائدة، وهو أيضاً ضار وشؤم، يأتي بالخير، ويسبب الهلاك، يحمى الآلهة والبشر، ويهاجمهم.

❁ ولد من بيضة كونية على حافة العالم، وانقسمت البيضة عند ولادته إلى قسمين، وأصبح القسم الأعلى منها السماء، والقسم الأسفل الأرض.

ولو استقرأنا رمز الحية أو الثعبان كما ورد في الأساطير لتبين لنا أن الإنسان الأول كان يتخذ منها رمزا للخلود أو الفناء، للموت أو الحياة، للحكمة أو العدوان... إلى غير ذلك من القيم المتناقضة والمعاني المتعارضة ؛ ومن هنا يتأكد أن الحية باعتبارها رمزا للشيطان في قصة بدء الخلق لابد أن تكون راجعة في أصولها إلى أسطورة من الأساطير، سواء أكانت الأسطورة السومرية كما يرجح العلماء، أو غيرها من الأساطير ولا يمكن أن تكون من مصدر إلهي.

أسطورة الحية في التراث العربي :

لم أجد فيما قرأت أثراً لعبادة الحية أو الثعبان من بين المعبودات الوثنية في الجزيرة العربية، ويبدو أن الأساطير المتعلقة بالحية في الثقافة العربية كانت متأثرة إلى حد كبير بقصص الأنبياء في القرآن الكريم، و ببعض القصص الأسطورية الإسرائيلية ؛ فإذا كانت اللعنة التي حلت بالحية اقتضت أن تزحف على بطنها فلا بد أنها كانت قبلاً تسير على قوائم، ونجد في كتاب الأوائيل التّصوّر الآتي :

يقال : إنَّ الحية كانت مثل الجمل، وكانت تطير، فدخل فيها إبليس، فطارت به حتّى أدخلته الجنة، فأغوى آدم، فصيّرت ملعونة، قال عدى بن زيد :

وَكَانَتِ الْحَيَّةُ الرَّفْطَاءُ إِذْ خُلِقَتْ

كَمَا تَرَى نَاقَةً فِي الْخَلْقِ أَوْ جَمَلًا

قال : فعوقبت بقص جناحيها، وقطع أرجلها، وإعراء جلدها، وشقّ لسانها، وإلقاء عداوة الناس عليها، ونُسبَ الكذب والظلم إليها.

فَقِيلَ : أَكْذَبُ مِنْ حَيَّةٍ، وَأَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ

وكذبها أن تنطوى في الرمل على الطريق، فتصير كأنّها طبق خيزران، ومنها حيّاتٌ بيضٌ، تستدير فتحسب خلاخيل أو أساور، وذلك لتغرى الناس ؛ فتهلكهم.

وظلمها أنّها لا تمرّ بحجرٍ، فتدخله إلّا هرب صاحبه منه، وخَلَاءَهُ. ^(١).

وقال ابن عباس والسّديّ : صارت عصا موسى حية عظيمة شعراء، فاغرة فاهها، ما بين لحيتها ثمانون ذراعاً، وقيل أربعون، واضعة أحد لحيتها بالأرض، والآخر على سور القصر ^(٢).

وقال ابن كثير : لما ألقي موسى عصاه صارت حية عظيمة ذات قوائم - فيما ذكره

(١) الأوائيل ٤٤.

(٢) البحر المحيط ٤ / ٣٥٧.

غير واحد من علماء السلف - وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج، بحيث إنَّ الناس انحازوا منها، وهربوا سراعا، وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحدا واحداً في أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون إليها، ويعجبون منها.^(١)

ونقل القرطبي : أنَّ اجتماع السحرة كان في الإسكندرية، فبلغ ذنبُ الحية وراء البحيرة.^(٢)

قال السُّدِّي : لما عهد الله ﷻ إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهَّرا بيتي للطائفين انطلق إبراهيم حتَّى أتى مكَّة، فقام هو وإسماعيل، وأخذ المعاول لا يدریان أين البيت، فبعث الله ﷻ ريحاً يقال لها : رِيحُ الْحُجُوج، لها جناحان، ورأس في صورة حية، فكنتس لهما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وأتبعها بالمعاول، يخفران حتَّى وضعها الأساس، فذلك حين يقول : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وقيل : إنَّ تلك الريح كان اسمها السكينة لها لسان تتكلَّم به.^(٣)

ومن الوجهة اللغويَّة الحية : هي الحشَّش المعروف، واشتقاقه من الحياة، ويجوز أن يكون اشتقاق الحية من حَوَيْت ؛ لأنَّها تتحوَّى في التوائها، والمذكر والمؤنث في ذلك سواء، على أنَّه قد روى عن العرب : رأيت حياءً على حية، أى : ذكرًا على أنثى أ والحَيَّوت : ذكر الحيات، وجمع الحية حيَّوات.

قال الأزهرى : وللعرب أمثال كثيرة في الحية، يقولون :

❁ هو أبصر من حية ؛ لحدة بصرها.

❁ هو أظلم من حية ؛ لأنَّها تأتي جحر الضبِّ، فتأكل حسلها، وتسكن جحرها.

❁ فلان حية الوادى ؛ إذا كان شديد الشكيمة، حامياً لحوزته.

(١) البداية والنهاية " ط / دار الكتب العلمية " ١ / ٢٣٩.

(٢) تفسير القرطبي ٧ / ٢٥٩.

(٣) تاريخ الطبري ١ / ٢٥٢، ٢٥٣، والآية الكريمة من سورة الحج ٢٢ : ٢٦.

❖ وهم حيّة الأرض ؛ إذا كانوا ذوى إرب وشدة، لا يضيّعون ثأراً، ومنه قول
ذى الإصبع العدواني :

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدَوَا ❖ نَ، كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ

❖ رأسه رأس حيّة ؛ إذا كان مُتَوَقِّدًا شهما عاقلاً.

❖ فلان حيّة ذكر ؛ أى شجاع شديد.

❖ ويدعون على الرجل فيقولون : سقاه الله دم الحيّات، أى أهلكه.

❖ ويقال : رأيت فى كتابه حيّات وعقارب ؛ إذا محّل كاتبه برجل إلى السلطان،
ووشى به ؛ ليوقعه فى ورطة.

❖ ويقال للرجل إذا طال عمره : ما هو إلّا حيّة،

ويقال للمرأة إذا طال عمرها : ما هى إلّا حيّة ؛

وذلك لطول عمر الحيّة ؛ كأنه سُمّي حيّة لطول حياته.

❖ وقال ابن الأعرابى : فلان حيّة الوادى، وحيّة الأرض، وحيّة الحُمَاطِ إذا كان
نهاية فى الدهاء والخبث والعقل، وأنشد الفراء :

كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحُمَاطِ أَعْرَفُ^(١).

ومن هنا نلاحظ أنّ الأساطير العربية المتعلقة بالحيّة تدور كلها حول الخيال
الشعبيّ فى تضخيم الشئ المخيف، ولا تكاد تخرج عن قصص الأنبياء والرسل.

(١) لسان العرب " حيا " ١٤ / ٢٢٠ - ٢٢١.